طــارق عبــد الواحــد

الفنانة إغراء... الانسحاب إلى الظلال الكتيمة

مع أن الكثير من صالات السينما السورية، ما تزال حتى الآن.. تعرض بعض أفلام الفنانة "إغراء" التي مضى على إنتاجها حوالي ربع قرن من الزمن، إلا أن غيابها عن المشهد الفني والثقافي السوري.. يكاد يكون غياباً كاملاً ونهائياً (وغامضاً)، في وقت يتحدث فيه السوريون عن الشخصيات الأكثر أهمية.. في تكوين وعيهم، على صعيد الثقافة والفن والسياسة، في القرن الأخير!..

ومع أنه لا يمكن التعويل، كثيراً، على برامج الصالات السينمائية، وسياسات عرضها، في ظل التراجع الكبير للبيئة السينمائية في سوريا، والذي تمثل بانحسار سينما القطاع الخاص، ولفظها آخر أنفاسها، وفشل جميع المحاولات التالية لإنقاذها، إلا أنه يمكن استخلاص بعض الإشارات في هذا المجال، ليس أقلها أهمية.. قدرة هذه الأفلام على جذب مرتادي السينما بعد كل هذا الزمن، وبقاء الفنانة "إغراء" كواحدة من نجمات شباك التذاكر..

الملفت أن الكواليس (وحتى البلاتوهات) السورية تتعامل مع تجربة القطاع الخاص في السينما، بازدراء واستعلاء غريب، ولا تخلو من نزعات تطهرية في كثير من الأحيان، وبمجافاة للسياقات والإشراطات التي تتحكم في العملية السينمائية.. الأمر الذي لا نلحظه في السينمات الأخرى، السينما المصرية.. مثالاً!..

ولعل غياب إغراء القاسي.. هو أحد تمظهرات (ونتائج) هذه الطريقة في التفكير، من دون أن تغفر لها تلك اللحظات الذهبية على قماشة الكتان البيضاء، أو انحيازها الكامل إلى العالم السينمائي.. الذي دخلته كراقصة مع الفيلم الأول في سينما القطاع الخاص: عقد اللولو (إخراج يوسف معلوف،

1964)، ثم استمرت فيه، كممثلة، وكاتبة قصة وسيناريو وحوار، ومخرجة، ومنتجة، حتى أواسط الثمانينيات، من خلال حضورها في أكثر من عشرين فيلماً، وهو رقم ليس صغيراً بالنسبة للسينما السورية.

ولن يغفر لها وقوفها أمام كاميرا المخرج نبيل المالح، ومشاركتها في دور البطولة النسائية في فيلم الفهد (1972)، الفيلم الأكثر مشاهدة في تاريخ السينما السورية، وفيلم السيد التقدمي (1974)، وهما من أفلام المؤسسة العامة للسينما.
والغريب أن تجربة الفنانة "إغراء" في السينما، غالباً ما تتم محاكمتها بالصيغ والقيم الأخلاقية التي تأتي من خارج البنى الفنية، وبشكل يحاول أن يعيد المنطق الفني إلى المربع الأول، وأن يسجنه في المنطق الإجتماعي والقيمي السائد. من دون أن يعني هذا.. عدم مشروعية نقد هذه التجربة (ومحاكمتها) من الناحية الفنية، وعبر أكثر المناطق إحراجاً للفنان: التجارية، بشرط أخذ السياق العام بعين النظر!..

منذ البداية، كانت إغراء واضحة في رسم معالم مسيرتها الفنية، ولعله في اتخاذها هذا الإسم الفني (اسمها الحقيقي: نهاد علاء الدين) ما يشير ويعلن ويتنبأ بحضورات الجسد الأنثوي، كحامل وكفضاء وكأداة، في التعبيرات السينمائية. وعلى الرغم من أن الإغراء، كمقولة وأسلوب، يمكن أن يقوم حتى بغياب تأثيثات الجسد.. إلا أن الفنانة "إغراء" اختارت الطريقة الأكثر صخباً وجرأة في استعمال الجسد، واستدراج مقولاته الأولى.. إلى حيز الكاميرات والأضواء. والصحيح أيضاً، أنها لم تكن الوحيدة في هذا المجال، ومن يشاهد أفلام السبعينيات والثمانينيات سيلاحظ تجولات الكاميرا على أجساد الكثير من الممثلات السوريات، وربما يسبب ذكر بعض الأسماء امتعاضاً لأصحابها (!!).

في حين يُلحظ فيه التقنين في استخدامات الجسد، وما يتصل به، أو يومئ إليه، لدرجة غياب (القُبلة الحميمة) في الأفلام السورية الأخيرة، مع أن البنية الفيلمية، في كثير من الأحيان، تحتمل حضور الجسد، كمنصة تصدير أقوال وأفعال.. هي في الصميم من التجربة الإنسانية بشقيها: الحسي والوجداني.

أهم ما في تجربة الفنانة "إغراء" أنها يمكن أن تفتح باباً واسعاً على أسئلة تتعلق بالواقع الفني والثقافي في سوريا.. ليس أقلها جملة التحولات التي أصابت الشارع، والارتدادات في الوعي والمزاج والتفكير العام، إضافة إلى الصياغات الفنية.. التي بدأت تقيم حساباتها في منظومة أخرى. وتفتح –في الوقت نفسه– باباً على أسئلة تتعلق بالمؤسسة الرسمية، من حيث نواظمها وقوانينها وآليات التحكم فيها. فماذا كان يفعل (الآخرون) حين كانت الرقابة تجيز مثل تلك الأفلام، ولماذا لم يستفيدوا من الهامش المتاح في ذلك الوقت؟!..

ربما يكون خطأ "إغراء" أنها غالت كثيراً في استخدامات الجسد، وتورطت إلى الحد الذي لم يعدّ باستطاعة أحد أن يساعدها، ولم يعدّ باستطاعتها أن تساعد نفسها. وربما كان عليها منذ البداية أن تعرف أن حضور ممثلة إغراء، من هذا الطراز، في الثقافة العربية، لا يشبه حضور مارلين مونرو في الثقافة الأمريكية، ولا بريجيت باردو في الثقافة الفرنسية..
يمكن لتجربة هذه الفنانة أن تكون تمثيلاً لتجربة سينما القطاع الخاص في سوريا (من دون أن تختصرها، بطبيعة الحال)، فالتجربتان بدأتا معاً، وانتهتا في نفس الوقت تقريباً. والآن.. ورغم جميع الجهود التي تُبذل لإخراج سينما القطاع الخاص من السبات، وغرفة الإنعاش، إلا أن الأفق مازال قاتماً ومسدوداً.

المفارقة.. أن السوق السورية تشهد انفتاحاً في جميع المجالات، وتدأب على خلق اشتقاقات أخلاقية وقيمية في مستوى المعايير الإجتماعية (وتنجح في ذلك غالباً)، على عكس صناعة السينما.. التي أخفقت بعد أربعة عقود من الزمن في تكريس مناخات ملائمة.. ودائماً على اعتبار أن السينما صناعة في أحد وجوهها!..